الدولية. في نهاية المؤتمر ألقت خطاباً باللغة الانكليزية حاولت أن تلقي فيه الضوء على بعض فضائل النساء الشرقيات في مقابل الانماط المترسخة في الاذهان.[1] بعد المؤتمر أمضت ثلاث سنين في الولايات المتحدة، فزارت نيويورك وبوسطن وبروكلين مخاطبة الجمهور الاميركي بالانكليزية فيما ترتدي اللباس الوطني السوري، محاولة بجرأة أن تساعد الجمهور الاميركي على تغيير ما كان قد تعلمه عن النساء السوريات. لسوء الحظ أصابها مرض السل فنصحها الاطباء بالعودة الى لبنان للعلاج. بمجرد عودتها الى لبنان ألقت خطاباً حول تأثير الحداثة في الشرق. ولكنها توفيت بعد ذلك بفترة قصيرة وهي لا تزال في التاسعة والعشرين من عمرها. فأحرقت رواياتها الثلاث وجميع الكلمات التي كانت قد ألقتها في الولايات المتحدة «خوف أن تمتد عدوى مرضها الى آخرين.»

لم تكن هنا كوراني المرأة العربية الوحيدة التي دخلت في حوار مع نساء الغرب في ذلك الوقت. كان هناك أيضاً زينب فواز (من لبنان) التي أرادت أن تحضر مؤتمر شيكاغو عام ١٨٩٦. إلا إنها لم تستطع أن ترسل الى بيرتا انوري بالمير، رئيسة القسم النسائي في معرض شيكاغو، نسخة من كتابها الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور الذي ضمنته سير ٤٥٦ امرأة من الشرق والغرب. ولكن حين طلب المؤتمر من النساء ان تقتصر نشاطاتهن على «المجالات النسائية» غضبت زينب فواز وأرسلت الى المؤتمر رسالة تعترض بشدة على هذا التحديد، مؤكدة أن حيوات الرجال والنساء تكون أفقر اذا اقتصرت واجبات النساء على الأسرة والاولاد. رسائلها الى المؤتمر التي اصرّت فيها على ضرورة اشتراك النساء في كل مناحي الحياة، نشرت في جريدة النيل في مصر. بالاضافة الى حضورهن المؤتمرات النسائية الدولية في الولايات المتحدة ولندن وباريس،[2] حاولت النساء العربيات الوصول إلى جمهور دولي والاتصال بنساء غربيات بواسطة الصحف التي أصدرنها. في هذه الصحف اطلعن القراء على التقدم الذي أحرزته النساء في مختلف أنحاء العالم وعلى العقبات التي لا تزال تعترض سبيلهن. اعتُبرت الاميركيات رائدات في تحرير المرأة وكثيراً ما ذكرت منجزاتهن بفخر على أنهن مثل تحتذي به النساء العربيات. عدد لا بأس به من الصحف، مثل أنيس الجليس لالكساندرة أفرينو، عيّنت مراسلين في بلاد كثيرة كي يبعثوا بتقارير عن النساء هناك، وينشروا الصحيفة كوسيلة لتعريف الغرب بالنساء العربيات. بعد أن زارت محررة أنيس الجليس أوروبا طُلب منها إصدار صحيفة نسوية باللغة الفرنسية تهدف الى اطلاع القراء على وضع النساء في الشرق. فلبت أفرينو الطلب: «مع أن مقالات كثيرة في الصحيفة تتناول قضايا النساء الشرقيات، وهي تترجم وتنشر في مجلات أوروبية، فقد يكون ذلك غير كافٍ. لذلك قررت أن أصدر صحيفة تتضمن مقالات تهم الشرقيين والغربيين على السواء.» رحّبت بدعم الأدباء ودعت الكتاب العرب الى اظهار الحماسة نفسها لأنيس الجليس. نعرف كذلك ان الاتحاد النسائي في مصر بدأ عام ١٩٣٦ إصدار الصحيفة Egyptienne باللغة الفرنسية موجهة الى جمهور اوروبي، تتضمن آراء المصريات حول قضايا وطنية.

كاتبة اخرى مبكرة، عفيفة كرم، كانت نائبة رئيس تحرير جريدة الهدى في نيويورك، وقد تركت الوظيفة في ١٩٠٦ لمدة سنة كي تكتب رواية عن العلاقة بين النساء الشرقيات والغربيات. بصفتها امرأة عربية تسكن في نيويورك لم تستطع أن تتقبل الآراء الخاطئة الكثيرة، ولا سيما تلك التي تمس النساء، والتي انتقلت بين الشرق والغرب، وكان من مصلحة بعض الناس ترويجها. روايتها «بديعة وفؤاد» التي نشرتها مطابع الهدى، قد تكون أول رواية في الادب النسائي تتناول النسوية الدولية وتنوعاتها الثقافية الداخلية. في رأي عفيفة كرم لم يكن هناك تناقض بين النسوية الشرقية والغربية.

ولكن في سياق الصراع بين السيطرة الغربية على المنطقة العربية ومقاومة هذه السيطرة، ظهرت هذه التناقضات وازداد تسييسها. في كتابها «صور نساء» درست سارة غراهام–براون كيف تمثل الصور الفوتوغرافية النساء في الشرق الاوسط بين ١٨٦٠ و١٩٥٠[3] في هذه الدراسة تذهب الى ان هناك ثلاث افكار متداخلة في تطور التخيلات الفوتوغرافية الغربية للنساء في الشرق الاوسط. «تعكس الاولى ان اختراع فن التصوير الفوتوغرافي تزامن مع فترة الاستعمارالاوروبي على نطاق عالمي. والثانية هي العلاقة الخاصة وغير المتساوية بين الثقافة الاوروبية وثقافة سكان الشرق الاوسط والتي يجسدها ما بات يعرف بالاستشراق. والفكرة الثالثة هي التوتر بين صور الاستشراق عن نساء الشرق الاوسط والمواقف المتغيرة تجاه دور النساء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في أوروبا. ومفهوم ضمناً أن وراء هذه الافكار جميعها علاقات سلطة غير متكافئة: بين المستعمِر والمستعمَر، بين خالقي التخيلات الاستشراقية واشخاصهم، وبين الذكر والانثى.»[4] ولكن في معظم الاحوال نظر الى النساء في الشرق الاوسط على أنهن أغراض جنسية غريبة، وكثيراً ما اعتبروا «المرأة الشرقية» تمثل «الشرق نفسه او خصائصه الجوهرية.»[5] تركّز غراهام–براون الانتباه على التباين الهام بين حجب النساء في الشرق وفرضية انهن سجينات الحجاب والعزلة من جهة، وبين كشف النساء جنسياً في نسخة مغايرة للشرق، من جهة أخرى. ففي اللوحات والصور «الاستشراقية» تبدو النساء عاريات في مشاهد الحريم والحمام.[6] اما في اميركا، فتقول هولي إدواردز أن الشرق «قدم نقيضاً مميّزاً شافياً مكّن اميركا من ذكر انجازاتها ومشكلاتها وبناء صورة جميلة عن ذاتها اثناء ذلك.»[7] لم يكن للولايات المتحدة مشروعاً استعمارياً في الشرق الاوسط في القرن التاسع عشر، إلا أن الاسلام «مثّل بالنسبة للمؤسسين ديناً خاطئاً الى

درجة انه نافس الكاثوليكية في كونهما أكثر الاديان مناقضة للمسيحية.»[8] من المهم أن نتذكر ايضاً أن الاميركيين حاربوا الشرق الإسلامي في ثمانينات وتسعينات القرن الثامن عشر، وان عدداً كبيراً من الاعمال كتبت نتيجة لذلك مثل الجاسوس الجزائري(١٧٨٧) الذي روى «الكثير من الانماط السلبية عن الشرق الاسلامي، ولكنه تخيل أيضاً قدرة المبادئ الديموقراطية على تسلية العالم وقيادته بعد ذلك الى الاحتشام. كان أبطال هذه القصص في أول الأمر منحرفي السلوك، ولكنهم تطوروا الى جمهوريين غيورين بفضل تعرّضهم للمؤسسات الاميركية، ومن بينها العائلة المستقرة الثابتة. هذه الاعمال التي كانت واسعة الانتشار خلال أوائل القرن التاسع عشرشكّلت الخطوات الرئيسية الأولى في جعل الاسلام صورةً للإرهاب في الثقافة الاميركية.»[9] ولا يزال الاسلام إلى الآن في اذهان معظم الاميركيين صورة للإرهاب والنساء المسلمات صورة للمظلومات والمذلولات في مقابل صورة الاميركيات، مواطنات الجمهورية المتمتعات بالحرية والمساواة.

ولكن من الواضح أن كلا الغرب والشرق، في الماضي وحتى يومنا هذا، لم يمنحا النساء المكانة التي يستحققنها، إلا أن كلاً من الشرق والغرب يدّعي أن وضع نسائه أفضل بكثير من وضع نساء الجهة الأخرى. الكثير من التنميط العدائي الذي يغذّيه الاعلام الشعبي في الغرب قائم على فكرة خاطئة تدعي أن النساء مقصيات عن المجال العام، وهي فكرة مبنية على فصل مبالغ فيه بين «الخاص» و«العام». حسب علمي لم تتحدَّ هذه النظرة المغلوطة سوى امرأة مصرية، هي نبوية موسى، في عملها الرائدي المرأة والعمل الذي نشر عام ١٩٢٠في مصر. في هذا الكتاب قدّمت حجة مثيرة ضد ابتزاز فريد وجدي النساء ابتزازاً ثقافياً حين عارض دفاع نبوية الشديد عن حق المرأة بالخروج للعمل. عرّف وجدي المرأة بأنها «كائن نبيل خُلق للإنجاب وتكثير الجنس البشري، وهذه مهمة لا يمكن أن ينافسها فيها الرجل،» ثم برّر موقفه بوصف «مشاهد في مصانع اميركا كسرت قلبه – حيث تعمل النساء داخل المصانع أمام مراجل ضخمة، يتصبب منهن العرق ويجاهدن في سبيل لقمة العيش.» في ردّ رائع تساءلت موسى كيف استطاع وجدي أن يعي هذه الظروف في أميركا وأن لا يعي ما هو اسوأ منها في بلاده. كتبت هذه القطعة الثمينة النادرة مركّزة على ما لا تزال تعانيه النساء:

> كيف أغمض عينيه فلم يرَ قط المرأة المصرية وهي تتألم وتئن تحت حمولتها الثقيلة من الفاكهة والخضار التي عليها ان تبيعها لتعيش، فتشق طريقها في الازقة معرّضة لإهانات الرجال؟ كيف يستطيع أن يتجاهل هؤلاء المصريات المسلمات اللواتي يكسبن عيشهن من غسل ثياب الاسر والجيوش البريطانية والمصرية؟ لا تتعرض هؤلاء النساء لحياة قاسية فحسب، وإنما ليس لهن ما يكفل صون شرفهن...ألم تشاهد سعادته عاملات البناء اللواتي يتسلقن السقالات حاملات أثقالاً من الطين والطوب؟ ألم يرَ الخادمات اللواتي يعانين من الاعمال الشاقة ويكنّ، فوق ذلك، عرضة لشهوة الرجال؟ لقد أغمض كاتبنا عينيه على هذه المشاهد كلها ولم يرَ غير قدر العاملات الاميركيات...لقد نسي امراً بسيطاً عن الطبيعة البشرية، وهي أن الناس لا يرون ما اعتادوا عليه.
>
> إن النساء يتعذبن حقاً وهن يكدحهن في مصر. لا نشعر بذلك، فيما نكون شديدي الحساسية لما يصيب النساء الاميكريات اللواتي يتعذبن أقل، ولكنهن يلفتن نظرنا لان من غير المألوف أن نراهن يعملن في المصانع.
>
> لا تُمنع الاعمال الدنيئة المتعبة على المرأة المصرية، مما يثبت أن النساء مجبرات على العمل حين يكنّ بحاجة الى كسب عيشهن لأننا لم ندربهن ليتمكنّ من القيام بأعمال تريحهن أكثر. النساء مضطرات الى القبول بهذه الاعمال المرهقة جسدياً والتي لا تتطلب أي معرفة. وفي ذلك يساوين العاملة الاميركية. يمنع على نسائنا فقط تلك المهن التي تتطلب الخبرة والعلم، كالادارة ووظائف التحرير، والمؤسسات العلمية، والطب، ووظائف الدولة العالية والحقوق. ابعادهن عن فرص هذه الاعمال لا يترك لهن خياراً آخر. هل من عدالة في ذلك؟ هل يمكن للذين يقفون في طريقهن ان يدّعوا حرصهم على راحة النساء وأمنهن؟[10]

بعد نبوية موسى بثمانين سنة لا يزال الغرب يعتبر النساء في الشرق مظلومات ومحرومات من جميع الحقوق، فيما يعتبر الشرق النساء في الغرب ضحيات الفن الاباحي والفجور الجنسي. ما توحيه هذه المواقف بالنسبة لنساء الشرق والغرب على السواء هو أن عليهن المحافظة على تقاليدهن لانها في النهاية أقل ظلماً مما تواجهه النساء في ثقافات أخرى. الذهاب بهذه الحجة الى أقصى حدودها يؤدي الى المشهد المأساوي الذي رأيناه في الاردن حيث تظاهرت النساء ضد مشروع القانون الذي قدّم في المجلس لإزالة المادة المتعلقة بجرائم الشرف في القانون الاردني. حسب هذه المادة يحق للرجل أن يقتل قريبة له إذا ارتاب في أنها تزني أو تسلك مسلكاً جنسياً مشيناً، من غير أن تتعدى عقوبته السجن لمدة ستة اشهر، وفي كثير من الاحيان لا ينفذ الحكم إطلاقاً. ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من كل ما تعانية المرأة الغربية من ظلم، يصور الغرب نساءه للشرق على أنهن حرات ومساويات للرجل، وان اقتفاء اثرهن لا يمكن الا أن يحرر الشرقيات أيضاً. وقد اتضح ذلك أكثر ما اتضح خلال حرب الخليج الأولى. أن وجود بعض المحاربات الاميركيات في السعودية جعل الصحف الاميركية تتغنى بأن لهذا الوجود تأثيراً سحرياً على السعوديات اللواتي قدن مظاهرة وسقن سياراتهن متحديات القانون السعودي الذي يمنعهن من سوق السيارة. ولكن لم يُذكر أبداً أن النساء في كل البلاد الاسلامية المجاورة يسقن سياراتهن منذ سنين، أو أن